



## نواحي وقرى كراسي وعائلات شيوخ ريف فلسطين

د. سعاد العامري\*

شكلت الناحية، وتدعى أيضاً المشيخة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وحدة إدارية ضريبية مستقلة. وقد تمتع المشايخ حتى منتصف القرن التاسع عشر، بقوة سياسية عالية ونفوذ وثروات

---

باحثة وكاتبة فلسطينية.

الدراسة فصل من كتابها بنفس العنوان، والصور من أرشيف "رواق".

وفيرة نسبياً، وذلك من خلال النظام الضرائبي المعروف باسم الالتزام.

كان لكل مشيخة مركز إداري يدعى قرية الناحية أو قرية الكرسي. وهي عادة مقر إدارة لشيخ الناحية، ومكان سكنه، ويمكننا التعميم بالقول أن قرى الكراسي تميزت بمواقعها المحصنة نسبياً. وعند التمحيص نجد أن نسبة قرى الكراسي الواقعة على قمم الجبال قد بلغ ثمانين بالمائة ٨٠٪، وباستثناء صانور قرية كرسي آل جرار التي كانت محصنة بأسوار عالية، لم تكن هناك أسوار تحيط القرى الفلسطينية سواء كانت قرية كرسي أو غيرها. وبشكل عام، فقد اعتمدت القرى لحماية نفسها على نفوذ وقوة جيش شيخ الناحية.

أما حجم المشيخة وعدد قراها فقد اختلف كثيراً، فبينما بلغ عدد قرى ناحية جماعين خمساً وأربعين قرية، لم تتعدّ مشيخة بني سالم وبني مرة الست قرى. وكما هو الحال بالنسبة لاختلاف المشيخات نتيجة انقسامها أو تجمعها اختلف عدد القرى التابعة لهذه المشيخة أو تلك. وكثيراً ما حصل خلاف حول تبعية قرية ما كما حصل عندما اختلف آل الريان وال القاسم (عندما أعيد تقسيم الجماعينات إلى غربية وشرقية على تبعية قرية الزاوية، حيث كان العدد الإجمالي خمساً وأربعين قرية، وتم تقسيمها مناصفة وبقيت قرية الزاوية متنازعاً عليها).).

### تقسيمات النواحي:

ودون الدخول في كثير من التفاصيل والتغيرات التي حصلت في عدد النواحي وقرى كراسيها في فترات تاريخية مختلفة، يمكننا القول إن النواحي الرئيسية في جبل نابلس والقدس والخليل كانت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على النحو التالي:

#### جبل نابلس:

انقسم جبل نابلس عملياً إلى سبع نواحٍ هي:

ناحية اللجون، وتدعى أيضاً ناحية جنين وكان مركزها قرية اللجون، ثم أصبح مدينة جنين، سيطر على هذه الناحية في الأساس آل جرار، ثم حكام عكا وحكام نابلس.

مشاريق الجرار ومركزها صانور بزعامة آل جرار، وبلغ عدد قراها ثلاثاً وعشرين قرية.

الشعراوية الغربية ومركزها عرابة بزعامة آل عبد الهادي وبلغ عدد قراها أربع عشر قرية.

جماعين الشرقية ومركزها بيت وزن بزعامة آل قاسم، وتدعى أيضاً جوررة عمرة، وبلغ عدد قراها خمس عشر قرية.

جماعين الغربية ومركزها جماعين ودير استيا بزعامة آل الريان وأبو حجلة، وقد بلغ عدد قراها ثلاثين قرية.

وادي الشعير ومركزها برقة وسبسطية بزعامة آل سيف وآل كاید، وعدد قراها عشرون قرية. مشاريق البيتاوي، مركزها بيتا وجالود بزعامة آل دويكات وآل منصور، وبلغ عدد قراها اثنتين وعشرين قرية، وتدعى مشاريق نابلس أيضاً.

### جبل القدس:

وكذلك منطقة جبل القدس، فقد بلغ عدد النواحي فيها سبعاً.

النواحي الغربية عددها أربع وهي:

بني حسن، ومركزها الولجة، بزعامة آل درويش، وبلغ عدد قراها إحدى عشرة.

بني مالك، ومركزها قرية العنب، بزعامة آل أبو غوش، وبلغ عدد قراها اثنتين وعشرين.

بني حارث، ومركزها رأس ابن سمحان، بزعامة آل سمحان، وبلغ عدد قراها ثماني عشر.

بني زيد، ومركزها دير غسانة، بزعامة آل البرغوئي، وبلغ عدد قراها عشرين.

أما النواحي الشرقية فتلاث وهي:

جبل القدس، ويضم أبو ديس وبيت إكسا، وبيتونيا، والبيرة، ودير دبوان.

بني سالم، ومركزها كفر مالك، وعدد قراها خمس.

بني مرة، ومركزها المزرعة الشرقية، وعدد قراها ست.

### جبل الخليل:

أما مشيخات جبل الخليل فهي ثلاثة:

العرقوب ومركزها بيت عطاب، بزعامة آل اللحم، وعدد قراها أربع وعشرين.

القيسية التحتا ومركزها دورا، بزعامة آل عمرو، وعدد قراها خمس عشر.

القيسية الفوقا ومركزه بيت جبرين بزعامة آل العزة، وتشمل أيضاً مناطق آل العملة في بيت أولا، وبلغ عدد قراها سبع عشر.

وبذلك يكون العدد الإجمالي سبع عشر مشيخة، وهذا على الأغلب الحال كما كان قبل حملة إبراهيم باشا إلى فلسطين. وقد تفاوت عدد المشيخات وكذلك عدد قرى الكراسي خلال الفترات المختلفة، وذلك نتيجة للصراعات حول السيطرة والنفوذ على مناطق المشيخات المختلفة. ومن المرجح أن يكون عدد النواحي وعدد قرى الكراسي قد بلغ أوجه خلال فترة حكم إبراهيم باشا حيث عمل على إضعاف نفوذ النواحي مما نتج عنه وجود قريتي كرسى في الناحية الواحدة أو أكثر ( ). لذا نجد أن أعداد النواحي وقرى الكراسي تتراوح من فترة لأخرى ومن مصدر لآخر. أما في "بعثة استشفاف فلسطين" عام ١٨٧٨ فقد تم ذكر أربع وعشرين قرية كرسى، حيث ذكرت أسماء قريتي كرسى لمشيخة واحدة، كما هو الحال في ناحية بني زيد حيث ذكرت عبوين ودير غسانة، كذلك الحال بالنسبة لدير إبزيع ونعلين في بلاد حارثة القبليّة وجماعين ودير استيا لناحية جماعين الشرقية، وقريتي برقة وجالود في ناحية مشاريق البيتاوي. أما السبب الآخر للتفاوت في عدد المشيخات فهو ناتج عن الصراعات المستمرة بين شيوخ النواحي التي نتج عنها، في حالات كثيرة، تقسيم الناحية إلى شرقية وغربية أو كما هو الحال في بني حارث القبليّة والشمالية. وكذلك الحال بالنسبة لما يسمى بالجماعينات، التي كانت لفترة طويلة مقسمة إلى جماعين الغربية، تحت سلطة آل الريان، وجماعين الشرقية تحت سلطة آل القاسم. أما ناحية الشعراوية فقد قسمت إلى الشعراوية الغربية بزعامة آل عبد الهادي في عزّابة، والشعراوية الشرقية بزعامة آل جرار. أما ناحية بني حارث، فقد قسمت إلى بني حارث الشمالية والقبليّة وتدعى أيضاً بني حمار. وقد نتج عن تغير الاسم أو الأصح تعدد الأسماء لنفس الناحية أخطاء في عدد النواحي. وبذلك نجد أن عدد النواحي وقراها قد تراوح بين سبعة عشر ما قبل حملة إبراهيم باشا ليصل إلى سبعة وعشرين خلال حكمه. (يوجد جدول)

ونتيجة للصراعات المستمرة بين شيوخ النواحي وأعيان المدن ووالي عكا ودمشق نجد أنه في حالات كثيرة قام شيخ الناحية أو حاكم المدينة بإقناع الوالي بأن يصبح متسلماً لمناطق شيوخ نواحي آخرين، كما كان الحال بالنسبة لناحية اللجون (جنين) أو ناحية بني صعب لآل الجيوسي في كور اللتين سيطر عليهما كل من آل عبد الهادي وآل طوقان.

## شيوخ ريف فلسطين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

المقصود بالريف الجبلي الفلسطيني هنا مناطق سلسلة الجبال الوسطى من فلسطين (من جنين حتى الخليل). فبينما كان نفوذ والي عكا ووالي غزة يمتد على القرى والمدن الساحلية من فلسطين، كان نفوذ شيوخ النواحي يمتد على منطقة الجبال الوسطى، أي جبال نابلس والقدس والخليل.

أما العشار البدوية في فلسطين فقد بسطت نفوذها على مناطقها التي كان أهمها صحراء النقب، ووادي الأردن ومنحدراته الشرقية، ومنطقة سهول مرج ابن عامر وسهل الحولة بالإضافة إلى بعض مناطق السهول الساحلية مثل أبو كشك في يافا وغزة وعرب الشبلي في منطقة الجليل.

كانت المناطق الجبلية الوسطى من فلسطين تحت سيطرة وزعامة شيوخ النواحي. وقد تعزز هذا النفوذ وضعف مرات عديدة خلال الحكم العثماني لفلسطين. وكان نفوذ شيوخ نواحي ريف فلسطين في أوجه عندما تميزت الحكومة العثمانية باللامركزية أو في فترات ضعف الإمبراطورية. وقد اكتسب شيوخ النواحي سطوة ونفوذاً كبيرين، لأن الحكومة العثمانية اللامركزية أعطت أو اعترفت لشيوخ النواحي بدورهم "كملتزمين"، أي الالتزام بجمع الضرائب من قرى نواحيهم. كما كان لشيوخ النواحي مسؤولية حفظ الأمن في مناطقهم، ومن ثم تنظيم الجيوش المحلية، بالإضافة إلى مسؤولياتهم بتنظيم وحماية موكب الحج السنوي إلى مكة. وقد استطاع الكثير من شيوخ النواحي، ونتيجة لنظام الالتزام العشري، جمع أموال طائلة من فلاحي القرى التي كانت تحت سيطرتهم. ويسمى نظام الضريبة الالتزام العشري نسبة إلى السماح لشيوخ النواحي بمجمع عشر المحصول لصالح الدولة العثمانية. وفي كل الحالات تجاوزت الحصة التي كانت تُجمع من قبل شيوخ النواحي العشر لتصل أحياناً إلى النصف. وقد كان هناك علاقة عكسية فكلما ضعف الحكم العثماني (كما كان الحال في أواخر القرن الثامن عشر) وسع شيوخ النواحي نفوذهم في المناطق المجاورة، ووقعت بسبب ذلك عدة مناوشات وصراعات ومعارك بين شيوخ النواحي، أدت إلى نقل مسؤولية التزام المناطق من مشيخة إلى أخرى. ومما لا شك فيه، أنه نتيجة نظام الالتزام والتحالفات المختلفة فيما بينهم، أو مع السلطة العثمانية، برز مشايخ وعائلات شبه إقطاعية استمر نفوذها في التوسع، ولم يتم تقويضه فعلياً إلا في نهاية القرن التاسع عشر.

أما نفوذ وصلاحيات وامتيازات شيوخ النواحي فقد اختلفت من منطقة إلى أخرى، ومن فترة إلى

أخرى، وبشكل عام يمكن القول، أن سطوة وعزوة شيوخ نواحي مدينة وجبل نابلس، وهم طوقان، وآغا النمر، وجرار، وعبد الهادي، والقاسم، والجوسي، كانت أقوى بكثير مما كان عليه حال شيوخ النواحي في منطقة جبل القدس والخليل. وذلك لخصوبة منطقة جبل نابلس، وكثرة قراها، وغنى وسطوة تجار مدينة نابلس، وقد امتد نفوذ شيوخ ريف جبل نابلس، كما سترى لاحقاً إلى السيطرة على معظم مدن فلسطين لتصل إلى جنين ونابلس، القدس ونواحيها، وصيدا وعكا ويافا وغزة، كما كان الحال بالنسبة لآل عبد الهادي والقاسم (انظر عرّابة وبيت وزن). وقد كان آل جرار أكثر شيوخ نواحي جبل نابلس نفوذاً، وفي فترة لاحقة، آل عبد الهادي في عرّابة، والقاسم في بيت وزن، ومن ثم جيايسة كور وريان جماعين.

أما زعماء شيوخ جبل القدس، فهم آل أبو غوش، زعماء حزب اليمن، وآل الخواجا في نعلين، وآل سمحان شيوخ قرية ابن سمحان زعماء حزب قيس. ومن زعماء جبل القدس أيضاً براغثة دير غسانة وآل سحويل في عبوين.

أما في علاقة الريف بالمدينة، أو بمعنى آخر علاقة قرى شيوخ النواحي بالمدن الرئيسية بالجبل أي نابلس والقدس والخليل، فيلخصها المؤرخ بشارة دوماقي بالقول: "إن مدينة الخليل كانت امتداداً بينما كانت القدس معزلة عن ريفها، واتسمت نابلس بعلاقة حيوية مع ريفها. ولا شك في أن هناك مصادر كثيرة تصف العلاقات الحيوية التي ربطت نابلس بمحيطها، وأهمها على الإطلاق، كتاب المؤرخ دوماقي إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس 1700-1900. ولكن للأسف ليس لدينا دراسات مفصلة توضح علاقة شيوخ نواحي القدس والخليل بمدنها كما هو الحال في نابلس. ولا شك أن نابلس لعبت دوراً اقتصادياً وسياسياً هاماً، وشكلت محوراً رئيسياً في تشكيلات وتحالفات شيوخ النواحي فيما بينهم، أو في تحالفاتهم مع ولاة عكا ودمشق، ومن ثم الحكومة المركزية. ولم يقتصر تأثير نابلس على جبل نابلس فقط، بل تعداه إلى مناطق نفوذ جبل القدس كآل أبو غوش في قرية العنب وآل سمحان في رأس ابن سمحان.

أما عن جبل القدس فيقول الكسندر شولش: "بينما كانت مشاحنات الزعماء المحليين في جبل نابلس تتجاوز الكفاح من أجل السيطرة على قرى ومناطق منفردة لتشمل السيطرة على نابلس أو منصب الحاكم فيها، فإن عاملاً كهذا لم يكن له دور في المنطقة الجبلية المحيطة بالقدس". ويضيف واصفاً أبناء الفئة العليا في القدس: "كانت مراكزهم تستند بالدرجة الأولى إلى تولي الوظائف الدينية

والأوقاف الواسعة النطاق، وإلى عضوية الهيئات الإدارية في القدس". ويضيف: "أي أن القضية بالنسبة لوجهاء القدس لم تكن قضية الحكم المباشر على الأراضي المحيطة بل قضية رعاية".

## نفوذ شيوخ نواحي فلسطين

لفترة من الزمن، أبقى العثمانيون التقسيمات الإدارية التي كانوا قد ورثوها عن المماليك، والتي شكلت فلسطين فيها الجزء الجنوبي من بلاد الشام، حيث لم تشكل فلسطين بحدودها الانتدابية، وحتى نهاية الحكم العثماني عام ١٩١٧، وحدة إدارية واحدة منفصلة. وبشكل عام، كانت ألوية فلسطين تابعة لولايتي دمشق وصيدا، ثم لولاية بيروت، بحيث تبعت المناطق الداخلية إلى إيالة دمشق، بينما تبع ساحل فلسطين إلى إيالة صيدا.

وفي معظم الأحيان قسمت فلسطين إلى خمسة أو ستة ألوية هي: صفد، وجنين، ونابلس والقدس ويافا وغزة. فالتقسيمات الإدارية العثمانية للجزء الجنوبي من بلاد الشام (فلسطين) كانت عرضية بحسب ما أرساه الرومان، حيث امتد قضاء اللجون (جنين) من البحر جنوب الطنطورة ماراً بسهل مرج ابن عامر ونزولاً إلى غور الأردن ثم إلى جبال البلقاء في الأردن. وكذلك الحال بالنسبة لقضاء نابلس، الذي امتدت نواحيه من الشعراوية الغربية، وبني صعب من البحر المتوسط متجهاً شرقاً، عبر أراضي مشاريق جرار ومشاريق نابلس إلى نهر الأردن شرقاً.

اختلفت هذه التقسيمات الإدارية والتبعية السياسية من فترة لأخرى، وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بصراعات ومناطق نفوذ القوى التي دارت بين دمشق ومصر وعكا ونابلس. ولاحقاً، (منذ منتصف القرن التاسع عشر) القدس.

لعبت مدن فلسطين الرئيسية صفد، عكا، نابلس، القدس، يافا وغزة أدواراً اقتصادية وسياسية مختلفة في فترات مختلفة. فيمكننا التعميم بالقول إن صفد وغزة لعبتا دوراً اقتصادياً وسياسياً هاماً، خلال القرن السادس عشر، بينما تمتعت كل من عكا خاصة ونابلس بدور اقتصادي وسياسي في غاية الأهمية خلال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث كانت عكا وحكامها يشكلون المركز والثقل الحقيقي المتحدي وشبه المستقل عن الحكومة العثمانية المركزية، وخاصة خلال حكم والي عكا ظاهر العمر (١٧٧٥-١٧٣٠) وبعده الجزائر.

أما القدس فقد تمتعت بأهمية دينية وقضائية أكثر منها اقتصادية وسياسية، فقد كانت مركزاً فضائياً

رئيسياً وتساوت مكانتها القضائية مع كل من دمشق والرملة والمدينة المنورة. كما اكتسبت القدس مكانة إدارية وسياسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين فقدت عكا مكانتها، وفصلت القدس عام ١٨٧٤ عن بقية سناجق بلاد الشام، لتصبح سنجقاً مستقلاً تابعاً مباشرة للباب العالي في استانبول. وتم أيضاً إلحاق ألوية يافا ونابلس والخليل وغزة بسنجق القدس، بذلك أصبحت مدينة القدس مركز السلطة بدلاً من عكا ونابلس.

ومن الجدير بالذكر، أن هذه المناطق الإدارية لم تخضع للحكومة العثمانية المركزية، بقدر خضوعها للحكام المحليين في فلسطين. فقد انتقل النفوذ على هذه المناطق، وتم تناقله بين حكام عكا، وحكام نابلس، وشيوخ نواحي الجبل، فها هو لواء اللجون (جنين) ينضم تحت سيطرة آل جرار، لينتقل إلى مناطق نفوذ حكام عكا، ومن ثم إلى حكام مدينة نابلس ويستمر الصراع عليه قرابة قرن من الزمن. ألحقت مناطق شيوخ النواحي (جنين، نابلس، القدس، والخليل) إدارياً بولاية دمشق. حيث كان والي دمشق عملياً هو مفتاح الوصول للسلطات العثمانية المركزية، وهو المسؤول رسمياً عن التعيينات السياسية، وأساس الشرعية الرسمية. وقد كان من صلاحيات والي دمشق تعيين متسلم أو شيخ الناحية وعملياً كان يتم التعيين سنوياً ولدورة واحدة. ولكن فعلياً أصبح شيخ الناحية منصباً شبه وراثي، وحتى في الحالات التي يتم فيها فصل شيخ الناحية. فكثيراً ما يتم تعيين ابنه أو ابن عمه أو قريبه في هذا المنصب. وجرت العادة أنه عندما يقوم الوالي، أو باشا الدورة ( )، بتعيين متسلم على ناحية يلبسه عباءة، وتدعى أيضاً فروة) ويقوم المتسلم من طرفه بتقديم له، فالرغم من التبعية الرسمية لمناطق جبل شيوخ النواحي إلى والي دمشق. يمكننا القول أنه، وخلال ما يقارب القرن (١٨٣١-١٧٣٠) كان لا ولاة عكا المتعاقبون هم الحكام الحقيقيين والمتنفذين والمؤثرين على نفوذ شيوخ نواحي فلسطين، بالرغم من تبعيتهم الرسمية لأيالة دمشق. وفي الأساس يعود ذلك لإنشغال ولاة دمشق بصراعات داخلية مستمرة، ولإنشغال الحكومة العثمانية المركزية بحروب خارجية عديدة (روسيا، فرنسا، ومصر) وفي كثير من الأحيان قام والي عكا بتحدي الحكومة المركزية ووالي دمشق، وذلك بتعيينه متسلمين جددًا، مناهضين للمتسلمين الذين تم تعيينهم من قبل الحكومة المركزية بواسطة والي دمشق. ويصف إحسان النمر في كتابة تاريخ جبل نابلس والبلقاء الوفد الذي جاء إلى نابلس مبعوثاً من طرف ظاهر العمر، بقوله: "اجتمعوا بأمرأء نابلس ووجهائها وعرضوا عليهم شروط الظاهر وهي تسليم جميع السلاح وخروج مصطفى بك وأحمد



بك (طوقان) إلى الظاهر كي يلبسهما الأول متسماً والثاني متسماً على القدس بدلاً، من آل النمر متسلي والي الشام". ويضيف: "أي أنه يريد ارغامهما على عصيان الدولة والانقياد له".

أما التحالفات الرئيسية، التي سعى شيوخ النواحي من خلالها إلى الحصول على امتيازات ومكاسب إضافية، فيمكن تلخيصها بما يلي:

١. علاقة شيوخ النواحي بالحكومة العثمانية المركزية، ممثلة بوالي أيالة دمشق، ووالي أيالة صيدا، وهما المسؤولين الرسميان، ومصدر الشرعية.

٢. علاقة شيوخ النواحي بحكام المدن، وخاصة ولاية عكا (ظاهر العمر والجزار) المصدر الحقيقي للامتيازات، وكذلك علاقة شيوخ النواحي بعائلات وبكوات نابلس والقدس.

٣. علاقة شيوخ النواحي والتحالفات فيما بينهم (قيس ويمن).

٤. علاقة شيوخ النواحي وتحالفاتهم خلال الأحداث الهامة والرئيسية التي عصفت بفلسطين، وبالتحديد حملة نابليون في نهاية القرن الثامن عشر، وحملة باشا على فلسطين (١٨٤٠-١٨٣١).

٥. وأخيراً فترات اللامركزية والمركزية للحكومة العثمانية، وعلاقة الأخيرة مع القوى المسيطرة في أوروبا وهي أساساً فرنسا وبريطانيا وروسيا.

لقد شكلت الصراعات والتحالفات المستمرة بين عائلات مدينة نابلس الرئيسية (طوقان وآغا النمر) مع حكام مدينة عكا (ظاهر العمر والجزار وعبد الله باشا) وأقوياء شيوخ الريف (جرار ولاحقاً عبد الهادي والقاسم) المحاور الرئيسية للأحداث، ونتج عنها نقلات نوعية من حيث الامتيازات والمصالح الاقتصادية والنفوذ السياسي. وقد ألفت هذه العلاقة الثلاثية بظلالها الثقيلة ليس فقط على جبل نابلس، بل تعدتها لتصل إلى جبل القدس والخليل.

ومن الجدير بالذكر أن بعض هذه العائلات وبالتحديد، طوقان وآغا النمر، كانت قد أحضرت إلى فلسطين، في منتصف القرن السابع عشر، من قبل الحكومة العثمانية، من حلب وحماة. وكان الهدف الرئيسي من إحضارهم هو تركيز سلطة الدولة تحديداً بأعيان المدن ونزعها من شيوخ نواحيها المحليين. وقد أعطت الحكومة المركزية لهؤلاء اقطاعات كبيرة (تيمارات) ليصبحوا فيما بعد القوى والزعامات المحلية الشبه مستقلة والمتحدية الرئيسية لسلطة ونفوذ الحكومة المركزية. أما آل جرار فقد قدموا من بقاء الأردن إلى سنجق اللجون (جنين) وذلك في منتصف القرن السابع

عشر. وأصبحوا أقوى شيوخ نواحي المنطقة بلا منازع ولذا لقبوا بـ"أمراء الريف" وباستثناء ثورة الفلاحين التي تزعمها شيخ بيت وزن قاسم الأحمد عام ١٨٤٣، كان شيوخ آل جرار، وخلال أكثر من مائة عام، الزعماء الرئيسيين للمنطقة، وقد كانت تحالفاتهم مع أو ضد حكام عكا أو نابلس ترجح كفة طرف على آخر.

أما سطوة آل جرار فقد كانت بالأساس ناتجة عن سيطرتهم على أرض شاسعة، بالإضافة إلى سيطرتهم على مشيخة مشاريق الجرار (جماعين الشرقية) والتي كان مركزها قرية الكرسى صاتور، فقد سيطر آل جرار على قضاء اللجون (جنين)، والممتد كما ذكر سابقاً من قرية اللجون ومرج ابن عامر إلى البلقاء سابقاً. وقد شكلت الأراضي الخصبة مكاناً هاماً لزراعة القطن والحبوب والتبغ. كما سيطرت على طريق التجارة العام الواصل بين دمشق ومصر. بالإضافة إلى طريق الحج. وقد شكلت ناحية اللجون السبب الرئيسي لنزاعات آل جرار مع حكام عكا وحكام مدينة نابلس. فقد نجح ظاهر العمر في توسيع رقعة الأراضي الواقعة تحت سيطرته بانتزاع اللجون وضمها لمملكته، بعد أن قتل شيخ آل جرار عبد الله عام ١٧٣٥. كما نجح حسين بيك عبد الهادي أيضاً، في انتزاع ناحية اللجون من آل جرار. كما شهدت ناحية بني صعب، الممتدة غرباً إلى البحر، ومركزها كور آل الجيوشي، صراعات دامت عشرات السنين. حيث نجح مصطفى بيك طوقان، بإقناع والي دمشق، بتعيين شيخاً على بني صعب لينشأ النزاع على مشيخة بني صعب بنين آل طوقان وآل الجيوسي. وبذلك سيطرت عائلات مدينة عكا ونابلس على مناطق نفوذ أقوى شيوخ ريف فلسطين، وبهذا نرى أن الصراعات قد تجاوزت شيوخ النواحي فيما بينهم من أجل حماية امتيازاتهم ومصالحهم الاقتصادية وعزوتهم السياسية.

### شيوخ النواحي وتحالفات قيس ويمن

شكل التحزب إلى فريق قيس ويمن، السمة الرئيسية للتحالفات التي سادت فلسطين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد تعددت الروايات الشفوية، وكذلك المصادر المكتوبة حول أصول وتاريخ قيس ويمن. ففي كتابه تاريخ جبل نابلس والبلقاء، يُرجع إحسان النمر أصول قيس ويمن إلى الغرب "الأصليين" قحطان وعدنان. فعدنان، أصوله حجازية (شمالية) بينما أصول قحطان يمنية (جنوبية). ويُرجع الخلافات إلى الصراع على الخلافة بين علي ومعاوية، حيث قام اليمينيون بمساندة علي، بينما ساندت قبيلة قيس المضرية (العدنانيون) معاوية. ويضيف إحسان النمر أن الملك الناصر بن قلاوون، قسم أراض فلسطينية حيث أقطع القسم الشمالي لليمنيين، والقسم الجنوبي للقيسيين،

وجعل وادي نابلس أصلاً، بينهما، وبالرغم من أن هذا الفصل، إن كان صحيحاً لفترة ما، فإنه لم يستمر طويلاً، إلا أنه قد يفسر تواجد أغلبية للقيسيين في جبل الخليل والقدس، وأكثرية لليمنيين في مناطق نابلس.

أما ماكالتر ستيوارت وماسترمان، فيذكران أن قيس ويمن كانا أخوين لكل منهما عائلة ممتدة كبيرة، وقد ساد العداء بينهما إلى حد تشكيل تحالفين سميا باسميهما، واستمر تأثيره قرونًا عديدة. ومهما كانت أصول وتاريخ قيس ويمن، فقد كانت النزاعات والتحالفات، المرتبطة بالمصالح الاقتصادية والسياسية، تقوم في حالات كثيرة بناء عليها. وقد تزامنت ظاهرة قيس بها ارتباطاً وثيقاً. ولم تقتصر هذه الظاهرة على مناطق الجبال الوسطى أي مناطق الفلاحين فقط، بل تعدتها لتضم قبائل البدو في مناطق نفوذهم: النقب، وادي الأردن، مرج ابن عامر، يافا، غزة، وكثيراً شكلت قيس أسساً لتحالفات اشترك فيها الفلاحون والبدو والمدنيون.

وكذلك الحال بالنسبة لعائلات بعض مدن فلسطين، ففي مدينة نابلس كانت عائلة آغا النمر تترأس القيسيين بينما تترأس آل طوقان اليمن أما عائلة عبد الهادي فقد كانت هي أيضاً قيس.

ومما لا شك فيه، أن تحالفات قيس ويمن، قد لعبت دوراً أقل أهمية في المدن، حيث سادت علاقات العائلات الاقطاعية، كما كان الحال في مدينة نابلس والقدس. أما حاكم يافا محمد آغا أبو نبوت، فقد استطاع عام (١٨٠٧) أن يسيطر على جبل القدس والخليل من خلال تحالفاته مع أبو غوش والخواججا في نعلين، بضم حزب اليمن له.

أما في جبل الخليل والقدس، فقد شكل القيسيون القسم الأكبر حيث سمي جبل الخليل، جنوب مدينة الخليل، بالقيسية الفوقا ومركزها دورا بزعامة آل عمرو، بينما سمي جبل الخليل، غرب مدينة الخليل، القيسية التحتا، ومركزها بيت جبرين بزعامة آل العزة. وقد كانت كل من بيت لحم، بيت جالا ورام الله من القيس أيضاً. وهذا يفسر الهجرة المبكرة (أوائل القرن العشرين) لأهالي جبل الخليل، إلى هذه المناطق، ومن هنا جاء الاسم الدارج حالياً قيسية للإشارة إلى سكان جبل الخليل القاطنين منذ أكثر من مائة عام في رام الله وبيت لحم وبيت جالا.

أما جبل القدس، فقد كان أيضاً ذا أغلبية قيسية، فكثيراً ما وجد شيوخ أبو غوش وشيوخ الخواججا في نعلين أنفسهم محاطين بالقيسيين، فقد تزعم آل سمحان، من رأس ابن سمحان قيسية جبل القدس،

بينما تزعم أبو غوش ( ) مينة المنطقة (بنو حارث)، وانضمت إليهم قرى بني زيد.

ومن الجدير بالذكر، أنه وفي كثير من الأحيان، كانت القرية الواحدة مقسمة، فبعض الحمائل تبعت يمن، بينما تبعت الحمائل الأخرى قيس. كما كان الحال في بلدة رام الله، التي كانت ست من حمائلها قيس باستثناء حمولة الشقرة فقد كانت يمن، مما نتج عنه تحالف الأخيرة مع بيتونيا وأبو غوش. وكان هناك حالات غيرت فيها الحمولة أو القرية بأكملها انتماءها من قيس إلى يمن أو العكس. ومثال على ذلك، حادثة مطالبة أهالي رام الله (تحت زعامة يوسف حرب وعيسى جغب من أتباع قيس)، الشيخ مصطفى أبو غوش (زعيم يمن) أن يكونوا تحت جناح وحماية الشيخ عبد الله الكسواني زعيم حزب اليمن في حينها. ولكن الأخير كان دائماً يمايز بين اليمنيين الأصليين والجدد مما اضطر أهالي رام الله والبيرة إلى العودة إلى تحالفاتهم الأصلية مع قيس.

أما في منطقة نابلس فقد شكلت عائلة آغا النمر، من مدينة نابلس، تحالفات قيسية مع كل من عبد الهادي عزابة، قاسم بيت وزن، وجيوسي كور، وبالمقابل شكلت عائلة طوقان، زعامة يمن بمساندة آل جرار في صانور وآل سيف في برقة وريان جماعين وآل كايد في سبسطية، ولكن هذا لم يمنع الصراعات الدموية والتي استمرت سنوات عديدة بين آل جرار وآل الريان، وكلاهما يمن. وكذلك آل عبد الهادي وجيايسة كور وكلاهما قيس مما يؤكد أن المصالح الذاتية والسعي وراء الامتيازات أدت إلى تحالفات وصراعات خارجة عن نطاق قيس ويمن.

وبذلك نرى أن تحالفات قيس ويمن امتدت عبر مناطق نفوذ عائلات المدن وشيوخ نواحي الريف ومناطق نفوذ عشائر البد. فقد تحالف آل سحويل مع آغا النمر بينما تحالف البراغثة (منافسو آل سحويل) مع آل القاسم، وقد ساد هذا النمط من تحالفات المتنافسين على نفس الناحية فكثيراً ما لجأ طرف لمناصرة العائلات الاقطاعية في نابلس (طوقان وآغا النمر) أو شيوخ النواحي الأقوياء (جرار وعبد الهادي وآل القاسم والجيايسة).

وأخيراً من الملفت للانتباه أن تحالفات قيس ويمن لم تكن مبنية على خلافات عقائدية وفكرية، فليس هناك أية أيديولوجية فكرية لأي منهما، مما يؤكد أنها شكلت فقط قاعدة سهلت التحالفات والصراعات المبنية على المصالح الاقتصادية.

وقد شكل اللون الأحمر شعار القيس، بينما شكل اللون الأبيض شعار اليمن. وفي حالات كثيرة،

كما هو الحال في قلعة ابن سمحان في رأس كركر، استعمل الصحن الصيني الأحمر في قمة القبة أو العقد رمزاً لقيس، وكذلك استعملت الحنة كصبغة حمراء لتلوين النقوش الحجرية فوق قوس المداخل والبوابات.

## محطات رئيسية في حياة شيوخ النواحي:

يمكننا هنا الحديث عن ثلاث حقب شكلت محطات رئيسية تم فيها تحدي، ومن ثم زعزعة. وأخيراً أفول نفوذ عائلات شيوخ النواحي:

١. فترة حكم ظاهر العمر الزيداني (حكم ١٧٧٥-١٧٣٠) ومن بعده أحمد باشا الجزائر (عاش ١٨٠٤-١٧٣٥) وقد هاجم ظاهر العمر قرى الكراسي خلال حملته مع أمير لبنان عام ١٧٦٤.

٢. حملة إبراهيم باشا على فلسطين (١٨٤٠-١٨٣١).

٣. سياسات التحديث والتنظيمات العثمانية والمتمثلة بقانوني الأراضي عام ١٨٥٦-١٨٥٨، وقانون الولايات لعام ١٨٦٤، وقانون الأراضي لعام ١٨٧٨.

وكانت أهم الأحداث التي وقعت في تلك الحقب على الإطلاق، محاولة إبراهيم باشا (١٨٤٠-١٨٣١) كسر نفوذ شيوخ النواحي، وما نتج عن ذلك من "ثورة الفلاحين" عام ١٨٣٤، بهدف التصدي لمحاولاته مسر شوكتهم، والتي بدورها سهلت مهمة الدولة العثمانية فيما بعد، وأدت إلى نقل مركز الثقل والسلطة من الريف إلى المدينة.

## حملة إبراهيم باشا على فلسطين وثورة شيوخ النواحي (١٨٣٤)

كان لمحاولة محمد علي الكبير، والي مصر، ووالد إبراهيم باشا، أثر كبير على نفوذ وصلاحيات شيوخ مناطق فلسطين. فخلال عملية تحديث اقتصاد مصر وإدارتها، قام محمد علي الكبير بالانفتاح على الدول الأوروبية والتحالف معها، خاصة فرنسا، في محاولة منه لإضعاف سلطة الدولة العثمانية في استانبول والاستقلال عنها. ومن أجل زيادة فائض المدخول من التجارة الدولية، وخاصة تجارة القطن والحبوب، ولزيادة الإيرادات الناتجة من الأسواق العالمية، قام محمد علي الكبير بتوسيع رقعة دولته. وكجزء من حملاته، أرسل محمد علي باشا ابنه إبراهيم لبيسط نفوذه على فلسطين عام ١٨٣١. وقد شكلت هذه الحملة خطراً وتهديداً كبيراً على مصالح الزعماء المحليين وعلى رأسهم إبراهيم باشا والي إيالة صيدا في حينها، ووالي عكا وزعامات وحكام مدينة نابلس طوقان وآغا النمر. وشكلت حملة إبراهيم باشا أيضاً

خطراً حقيقياً على معظم شيوخ نواحي جبل نابلس والقدس والخليل، وخاصة آل جرار وآل القاسم. حيث عمد إبراهيم باشا، كما سزى، إلى إضعاف نفوذهم من خلال تحالفاته العديدة مع أعيان المدن، الذين عمل جاهداً لتركيز السلطة والصلاحيات بأيديهم، ونزعها من الريف وشيوخ الريف.

وفي البداية، وفي محاولة من إبراهيم باشا لتحديد شيوخ النواحي، وخاصة الأقوياء والمتنفذين منهم، (قاسم الأحمد وعبد الله جرار)، قام بالعمل على تثبيتهم واستمرار نفوذهم، وذلك من خلال مرسوم أرسل إلى نابلس وجاء فيه: "وأما بلاد جبل نابلس جميعها فإننا أبقيناها بعهدة مفاخر المشايخ الشيخ محمود عبد الهادي والشيخ يوسف بن قاسم الأحمد، والشيخ عبد الله الجرار والشيخ يوسف والشيخ عبد الوهاب الجيوسي يتعاطوا أمور الأحكام وجباية الأموال. وقد فعل ذلك في البداية ليتحاشى فتح جبهات عديدة، وفي خطوة لاحقة قام إبراهيم باشا بتركيز الصلاحيات والسلطة بكل من آل عبد الهادي من عزابة، والشيخ قاسم الأحمد أقوى شيوخ نواحي المنطقة في حينها. وعليه، قام بتعيين الشيخ حسين عبد الهادي والياً على أيلة صيدا بدلاً من إبراهيم باشا، وعين أخاه الشيخ محمود عبد الهادي متسلاً على يافا، وابنه الشيخ سليمان متسلاً على جنين. هذا بالإضافة إلى سيطرة آل عبد الهادي وإقطاعهم في عرابة (الشعراوية الشرقية) وأم الفحم. كما قام إبراهيم باشا بتعيين الشيخ قاسم الأحمد متسلاً لمدينة القدس، وابنه الشيخ يوسف متسلاً لمدينة نابلس. وبذلك تم تركيز السلطة عملياً بشخصين اثنين أولهما من المدينة (أصل ريفي) وثانيهما من زعامات الريف. لقد أعطى هذا التقسيم المتساوي في السلطة قراراً لإبراهيم باشا دام ثلاث سنوات. إلا أن إبراهيم باشا عمل على إضعاف شيوخ النواحي لصالح أعيان المدينة. فقام بتنحية الشيخ قاسم الأحمد عن متسلمية القدس وتعيين ابنه مكانه، ومن ثم إعطاء متسلمية نابلس إلى سليمان ابن الشيخ حسين عبد الهادي كان لإضعاف شيوخ نواحي الجبل ممثلين بالشيخ قاسم الأحمد الأثر الكبير على تجنيدهم وتحريكهم ضد إبراهيم باشا فيما يعرف بثورة شيوخ النواحي وتعرف أيضاً بثورة الفلاحين. وكما هو متوقع، فقد تزعم هذه الثورة الشيخ قاسم الأحمد، الذي قام خلال موسم الحج، بالاتفاق مع شيوخ المنطقة على إعلان التمرد على إبراهيم باشا، ورفض دعمه وتقديم الجنود له، وخلال اجتماع في بيت وزن حضره الشيخ عبد الله الجرار، والشيخ ناصر المنصور من جالود، والشيخ إسماعيل ابن سمحان، وشيوخ كل من برقة ودير غسانة أعلن العصيان على إبراهيم باشا، ورفض دفع الضرائب له، لأكثر من عام احتجاجاً على تقليص دورهم لصالح حسين بيك عبد الهادي. ونتيجة لذلك أعلن إبراهيم باشا الحرب ضدهم وأسماهم "بالأشقياء".

قام إبراهيم باشا عام ١٨٣٤ بتهديد "الأشقياء" وكل من يقدم المساعدة إليهم. وقد نجح كل من أحمد آغا النمر، وحسين عبد الهادي خاصة، بالعمل على تحييد الكثير من شيوخ نواحي نابلس، مما نتج عنه محاصرة وأضعاف أنصار ثورة الفلاحين قاسم الأحمد، وعبد الله الجرار، مما اضطرهم إلى محاربة إبراهيم باشا في جبل القدس، الذي كان الشيخ قاسم الأحمد متسلماً له. ولكن عندما هزموا في منطقة القدس، في ما يسمى بموقعة قرية الدير، انسحب جزء منهم إلى جبل نابلس حيث تابعت جيوش إبراهيم باشا محاربتهم قدمرت قلعة صانور وقتلت شيخها عبد الله الجرار. مما اضطر الشيخ قاسم الأحمد، وولديه الشيخ يوسف والشيخ محمود، إلى الهروب إلى الخليل، ومن ثم اللجوء إلى أعوانهم آل العدوان وبني عنزة شرق نهر الأردن. لحقت جيوش إبراهيم باشا بهم، لتحاصرهم في مدينة الكرك، حيث تم تدمير الكرك، والقرى والمناطق المحيطة بها عن بكرة أبيها. وتم سجن وقتل الشيخ قاسم الأحمد وأبنائه في دمشق، وبذلك أخمدت ثورة شيوخ الفلاحين، وتم إخضاعهم من قبل إبراهيم باشا.

ونتيجة لهذه التحالفات، قام إبراهيم باشا بإعادة توزيع مناطق نفوذ شيوخ النواحي، فقام بمكافأة أبو غوش وعين الشيخ جبر أبو غوش حاكماً. للواء القدس (١٨٣٥-١٨٣٤) رغم أنه لم تجر العادة بتعيين مشايخ الريف حاكماً على القدس، فضمت مناطق جماعين الشرقية التابعة لآل جرار، إلى مناطق جماعين الغربية تحت إمرة آل الريان، ونصب شيوخ آل سحويل، من عبوين ملتزمين لناحية بني زيد بدلاً من شيوخ براغثة دير غسانة. وضمت مناطق نفوذ آل سمحان في راس ابن سمحان، إلى مناطق نفوذ أبو غوش. وكذلك الحال بالنسبة لناحية بني مرة، حيث قسمت إلى ناحيتين، وعين شيخ جديد من عائلة مبارك من سلواد، وهكذا. إلى أن انتهت فترة حكم إبراهيم باشا وخروجه من فلسطين عام ١٨٤٠ نتيجة لمحاربة السلطان العثماني، عبد المجيد، لإبراهيم باشا والمشروع التوسعي لوالده محمد علي الكبير بدعم وإيعاز من الدول الأوروبية.

### **الضربة الأخيرة لشيوخ النواحي من قبل الحكومة العثمانية المركزية (١٨٥٠-١٩٠٠)**

قامت الحكومة العثمانية بكسب كل من فرنسا وبريطانيا، الداعمين الأساسيين لمحمد علي الكبير وإبراهيم باشا، وذلك بإعطائهم امتيازات خاصة نتج عنها مساعدة الإنجليز العثمانيين بطرد إبراهيم باشا من فلسطين. وبذلك بدأت مرحلة جديدة اتصفت بمركزية الحكومة العثمانية، حيث اتبعت معظم مناطق فلسطين مباشرة إلى استنابول. وقد عملت الحكومة العثمانية على إصدار مجموعة

من التنظيمات والإصلاحات التي كان هدفها، تركيز السلطة بأعيان المدن ومن ثم ضرب النفوذ المتبقي لشيوخ نواحي جبل نابلس والقدس والخليل، ومن أهم هذه الإصلاحات نقل مركز القوة من نابلس إلى القدس، حيث أعلنت الحكومة العثمانية عام ١٨٧٤ القدس سنجقاً، تتبع له كل من نابلس والخليل ويافا، وفيما بعد غزة وبئر السبع، وبذلك أصبح سنجق القدس، المستقل عن والي دمشق، يتصل مباشرة مع استنابول، وعاصمة حقيقية لفلسطين.

قامت الحكومة العثمانية بتوجيه الضربات القاضية لكل ما تبقى من نفوذ شيوخ النواحي، ووجهت سهامها إلى سائر العائلات الشبه إقطاعية كآل جرار وعبد الهادي. ففي ربيع عام ١٨٥٨، دمرت جيوش الحكومة العثمانية قرية عرابة وهدمت أجزاء كبيرة منها، وكررت ذلك مع آل جرار، أمراء ريف فلسطين، وغيرهم، حيث طوت وإلى الأبد تاريخ قرنين من نفوذ وصلاحيات وامتيازات شيوخ ريف فلسطين. وبقيت قصورهم وقلاعهم شاهداً ليومنا على هذا التاريخ المثير.